القسم الأول

الدراسة

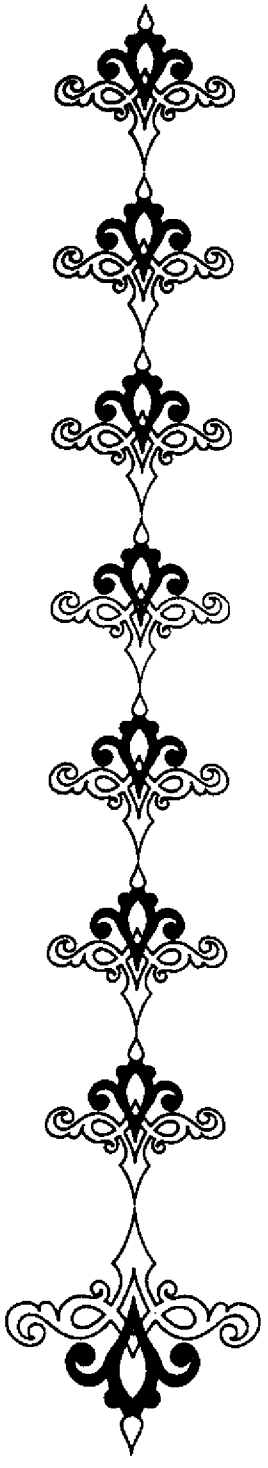

تمهيد

الحياة السياسية والفكرية في عصر الجلال

المتمعن لتأريخ اليمن من الناحية السياسية والفكرية يلمس جوانب كثيرة أثرت على هذا البلد وصاغته؛ ليكون من البلدان القليلة التي صار لها رصيد تأريخي وحضاري وفكري، جدير بالدراسة والعناية، حيث تأثر كثير من العلماء والفقهاء بهذا الرصيد الفكري والحضاري، منهم العلامة الحسن بن أحمد الجلال (١٠١٤هـ-١٠٨٤هـ).

عاش الجلال في عصر ازدهر فيه العلم وانتشرت فيه المراكز العلمية التي كانت تسمى بـ (الهجر)، وكانت الدولة القاسمية (١٠٠٦هـ ـ١٣٨٢هـ) من تلك الدول التي شجعت العلم والعلماء، حيث بدأت هذه الدولة بمؤسسها القاسم بن محمد (٩٦٧هـ ـ ١٠٢٩هـ) الذي يرجع نسبه إلى الإمام الهادي بن الحسين بن القاسم مؤسس الدولة الزيدية الأولى في اليمن[١]، وقد كان القاسم بن محمد ـ المنصور بالله ـ مشتغلاً بطلب العلم على شيوخ عصره؛ فبرع في فنون الشريعة، وبعد وفاته تولى الملك ولده محمد ـ المؤيد بالله ـ (٩٩٠هـ ـ ١٠٥٤هـ)، وقد أخذ العلم عن علماء عصره المشهورين حتى صار معدوداً في زمرة العلماء[٢].

وقد تولى الملك بعد محمد بن القاسم أخوه إسماعيل ـ المتوكل على الله ـ (١٠١٩هـ ـ ١٠٨٧هـ)، وقد ظهر ذكاؤه حين برع في الفقه وفاق علماء عصره

---

(١) ينظر: «اليمن الحديث» للحداد (٤/ ٥٩) دار التنوير ـ بيروت.

(٢) ينظر: «اتحاف النبيه بتأريخ دولة القاسم وبنيه» للقاضي المؤرخ العمراني (مخطوط).

وشارك في المصنفات العلمية الكثيرة[١]، بيد أنه كان يميل إلى الأصول إلى التكفير بالإلزام فترتب على ذلك أحكام جائرة على بعض البلاد اليمنية، فكانت هذه المقالة الباطلة أساس كل ظلم، حيث حكم على من خالفه في اعتقاده بأنهم خراجيون يجوز للإمام أن يضع عليهم ما يشاء.

كان الجلال قد بلغ الأربعين من عمره حين تسلم المتوكل على الله إسماعيل سدة الحكم بعد تنافس مع أخيه أحمد الذي كان يكبره بعامين، وانتهى لصالحه[٢]، وعلى الرغم من أن الجلال قد اعتزل في داره في الجراف متفرغًا للعلم والتصنيف إلا أنه كان مشاركًا هموم الناس ومتتبعًا أحوال البلاد السياسية موجهًا رسائل النصح والانتقاد للمتوكل أو غيره من ساسة الإمام، من ذلك ما بلغه أن عساكر الإمام المتوكل قد دخلت منطقة يافع سنة (١٠٦٦هـ)، وقد سلكت مسلك الشدة في إخضاعها، فبعث الجلال برسالة إلى المتوكل سماها (براءة الذمة من نصيحة الأئمة)[٣]، وقد أثارت جدلاً شرعيًا في أوساط العلماء في محيط المتوكل بين مؤيد ومخالف، وقد كان الجلال كثير المناقشة له، والرد للقواعد التي بنى عليها الفقهاء أحكام المعاملات والسياسات[٤]، ومع ما صدر من الجلال إزاء المتوكل إلا أنه كان يعظمه غاية التعظيم، ويرى له الحق الأكيد ويولي اعتراضاته اهتمامًا بالغًا، وكما قال الشوكاني: «فقد كان يجله غاية الإجلال، ولا يعرف الفضل إلا أهله»[٥].

---

(١) ينظر: «البدر الطالع» للشوكاني (١/ ٩٨) دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) ينظر: «الحسن بن الجلال» (دراسة ونصوص محققة) للدكتور/ حسين العمري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ بيروت.

(٣) وقد طبعت وحققت ضمن (دراسة نصوص محققة) للعمري.

(٤) ينظر: «الحسن بن أحمد الجلال» (ص٣٤).

(٥) ينظر: «البدر الطالع» (١/ ١٣٤).

وإذا نظرنا إلى الجانب الفكري، فقد أولى المتوكل جانب العلم اهتمامًا كبيرًا حيث ازدهر هذا الجانب في عصره وكثرت هجر العلم وانتشرت ونشطت في حياته الحركة الفكرية، حتى فاق تعداد العلماء في عهده العهود السابقة، ومن أبرز هؤلاء العلماء الحسن بن أحمد الجلال، والحسن بن أحمد بن مطهر، وإسماعيل بن يحيى الجحافي وغيرهم.

ولم يكن الإمام إسماعيل بن القاسم الوحيد في أسرة آل القاسم الذي اهتم بتنشيط الحياة الفكرية، بل كان أبوه وإخوانه من قبله ممن اهتموا بهذا الجانب وشجعوا طلاب العلم على البحث والدراسة، ورصدوا لهم المكافآت المالية[1].

ومما يدل على ازدهار الحياة الفكرية في عصر الجلال أن المتوكل كان يعقد المجالس العلمية والمناقشات بين العلماء، سواء كانوا جميعًا من معتنقي المذهب الزيدي[2]، أو في بعض الأحيان بين الزيديين والشافعيين سواء كانوا من اليمن أو من العلماء الوافدين إليه من الأقطار الإسلامية، ففي عام (١٠٦٤هـ) وفد إلى الإمام المتوكل أحد العلماء المصريين ويدعى حجازي بن علي المصري الشافعي الأشعري، فأحسن الإمام استقباله، وقد قام هذا العالم بشرح كتاب الإمام إسماعيل (العقيدة الصحيحة في الدين النصيحة)، وفي نفس العام وفد إلى الإمام الشيخ جعفر الواعظ من العلماء السنيين ـ حنفي المذهب ـ المتفقهين

---

(١) ينظر: «إسماعيل بن القاسم ودوره في توحيد اليمن» (ص٤٨-١٥٠) بحث مقدم من الطالبة سلوى الغالبي لنيل درجة الماجستير من جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة.

(٢) المذهب الزيدي: من المذاهب الإسلامية، وينسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، والزيدية إحدى الفرق الشيعية، ولكنها أعدلها وأقربها إلى مذهب أهل السنة والجماعة، ينظر: «تاريخ المذاهب الإسلامية» لمحمد أبي زهرة (٢/ ٤٩٢) دار الفكر العربي، و«الزيدية» للأكوع (ص٣) دار الفكر ـ دمشق، وبحثًا أعده فيصل العماد في جامعة أم القرى حول «موقف أهل السنة من الزيدية» (ص١٥).

في العلوم الدينية، وقد أثير نقاش بينه وبين أبي الرجال ـ زيدي المذهب ـ حول مسألة الرجاء والشفاعة، وقد احتدَّ النقاش بينهما مما دعا الإمام إسماعيل بن القاسم إلى التدخل لتخفيف حدته[١]، وهذه المناقشات والحوارات بين المذاهب الإسلامية تثري الفكر الإسلامي فينضج الحوار ويحدث التأثير والتأثر، وتدفع الفريقين إلى مزيد من البحث والنقاش، فيتجه كل فريق إلى الاجتهاد لإقناع الطرف الآخر بوجهة نظره.

ومما يدل على الاهتمام بالجانب الفكري أن المتوكل على الله إسماعيل ترك ثروة علمية وفكرية عظيمة، تمثلت بنيف وثلاثين ألف كتاب من الكتب العلمية الزاخرة التي كانت بحوزته في مختلف الفنون والعلوم[٢].

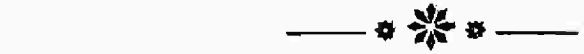

(١) ينظر: «إسماعيل بن القاسم ودوره في توحيد اليمن» (ص١٥١).

(٢) ينظر: «هجر العلم ومعاقله في اليمن» للأكوع (٢/ ٧٨ ١) دار الفكر ـ دمشق